قصص وتاريخ ...

بقلم فؤاد حداد

تحتفل الجالية اليهودية في انكلترا هذا العام بمرور ثلاثمئة سنة على السماح لليهود بالعودة الى انكلترا والاستيطان فيها من جديد ، وكان كرومويل هو الذي سمح لهم بذلك في عام ١٦٥٧ .

اما قبل عهد كرومويل فقد كان محظورا على اليهود دخول بريطانيا اذ نفاهم الملك ادورد الاول قبل كرومويل بأربعمائة عام .. وقصة نفيهم قصة ممتعة تجمع بين طرافة الرواية وحقيقة التاريخ ..

*

كان الشعور ضد اليهود في انكلترا يتزايد تزايدا مطردا اثناء القرن الثالث عشر : فقد كان اليهود يعيشون بطريقة تختلف عن الطريقة التي كان يعيش بها الناس الآخرون من مزارعين وصناع وتجار ، وكانوا يسيرون في شوارع مدينة لنكولن Lincoln القديمة بغطرسة بغيضة الى النفوس جعلت السكان يتجنبونهم ويكرهونهم في آن واحد .

ولو اقتصر الامر على هذا ، لهان الحال ، ولكن ما زاد الطين بلة ان معظم اولئك الناس كانوا قد استدانوا من اليهود مبالغ مختلفة من المال . فرؤساء الاديرة والنبلاء والفرسان والتجار كانوا يحتاجون بين الحين والآخر الى كميات من المال ، ولما لم تكن المصارف قد عرفت في ذلك الحين كان على هؤلاء ان يستدين احدهم من الآخر ، ولكن المال كان في ايدي اليهود ، وهؤلاء لا يقرضونه الا بفوائد باهظة ولهذا كان سكان مدينة لنكولن يخفون شعورا من الكره والثورة المكبوتة على اولئك الاغراب الذين يأخذون منهم الفوائد بين ٢٠ — ١٠٠ ٪ .

هكذا كان الحال ايضا في معظم مدن انكلترا ، الا ان الجالية اليهودية في مدينة لنكولن بالذات كانت جالية كبيرة عزيزة الجانب موفورة الحال ، بل اكبر الجاليات اليهودية في انكلترا على الاطلاق باستثناء لندن . وكان رئيسها رجلا قديرا اسمه هارون له عملاء في جميع انحاء انكلترا . وقد استطاع ان يجمع لنفسه ثروة طائلة من اقراض امواله بالفائدة . فقد اقترضت منه الحكومة نفسها لتمويل حملة للهجوم على ايرلندا ، واقترضت منه الكنيسة لبناء ١٦ ديرا وكاتدرائية منها كاتدرائية لنكولن نفسها وبيتربرة Peterborouch وكان رئيس اساقفة كانتربري من بين مستدينيه ، وكان عدد كبير من رجالات الحكومة يستدينون من هارون حتى الملك هنري الثالث نفسه كان يستدين من اليهود ، فحملاته المتكررة قد اضعفت مالية الدولة ، وممن يطلب الملك المساعدة المالية ان لم يطلبها من اغنى طبقة في البلاد ؟.. ولكن موقف الملك كان فريدا في نوعه : ذلك لان جميع اموال اليهودي وممتلكاته تحول الى خزينة الملك حال وفاة ذلك اليهودي وكل دين لذلك الرجل على الملك يعتبر عند ذاك لاغيا ، ويستطيع اقرباء اليهودي الميت ان يستعيدوا تلك الممتلكات اذا دفعوا للملك تعويضا كبيرا يرضى عنه . وهكذا فان ديون الملك من اليهود كانت تسوى عاجلا او آجلا ، بموت المدين .

اما عامة الشعب فلم يكن لديهم هذا المخرج الطيب الذي كان يتمتع به الملك ، فلم يكن ثمة أي مفر من ان يدفعوا الفوائد الباهظة عاما بعد عام دون ان يكون لديهم أي امل في دفع الدين نفسه في أي وقت . ولهذا كان كرههم لليهود يزداد شيئا فشيئا . وكانت الاضطرابات ضد اليهود تنشب بين الحين والآخر فيقتل بعضهم وتنهب اموال البعض الآخر . وكان اليهود يبنون بيوتهم بطريقة خاصة يكون فيها عرض الحائط حوالي المتر ليصد عنهم الغارات وكانوا يختفون عن الانظار عندما تلتهب العواطف ضدهم .

في عام ١٢٥٤ كان الشعور في انكلترا ضد اليهود قويا جدا . فقد جرت هجمات منظمة على يهود لندن كما جرت مذبحة كبيرة قتل فيها عدد كبير من اليهود . ونظمت اضطرابات مشابهة في لنكولن كانت على وشك النجاح لو لم يهرب اليهود ويختبئوا في قلعة المدينة ، الى ان هدأت ثورة الشعب . ولكن الموقف في لنكولن لم يعد الى سابق هدوئه بل ظل مشحونا بالمتفجرات يحتاج الى شرارة صغيرة واحدة تنقل هذه المتفجرات الى بركان من اللهيب والغليان .. واخيرا جاءت هذه الشرارة .. حملها صبي صغير في الثامنة من عمره اسمه هيو Hugh وهذه قصتها :

كان هيو صبيا صغيرا يسكن في آخر شارع « ستيب هل » Steephill في حي من احياء لنكولن اسمه ديرنستال Dernstall . وفي امسية صافية من امسيات شهر اغسطس (آب) عام ١٢٥٥ ، خرج الصبي كعادته ليلعب في الشارع ، ولعله كان عائدا الى بيته بعد ان قضى عصر ذلك النهار يتمرن على الانشاد في الكنيسة ، فقد كان هيو من بين الصبيان الذين ينشدون ايام الآحاد في كاتدرائية مدينة لنكولن ، وبينما هو يركض في الشارع ويمرح كان يلعب ايضا بكرة صغيرة في يده .

وخرج هيو من منطقة الكاتدرائية ووصل المحكمة

ثم اجتاز المحكمة والقلعة وبدأ ينحدر تجاه « ستيب هل » و « ستيب هل » ، كما يدل الاسم ، هضبة مرتفعة تشرف على واد عميق ، ولهذا لم تكن ملعبا مناسبا لصبي معه كرة صغيرة .. وسرعان ما أفلتت منه الكرة وانحدرت في الوادي ولحقها هيو مسرعا ، وفجأة وجد نفسه في وسط جماعة من اطفال اليهود كانوا يلعبون بالقرب من بيت هارون وانقضت فترة قصيرة تحدث فيها هيو ولعب مع الاطفال اليهود ، وبينما كانت الايدي تتقاذف الكرة وتضرب بها على حائط بيت هارون انفتحت نافذة من البيت واطلت منها فتاة جميلة سمراء هي ابنة « كوبن » Copin اليهودي الذي يسكن في بيت هارون وتحت حمايته . واخذت الفتاة ترقب الاطفال يلعبون .. كانوا ستة : خمسة منهم ذوو شعر اسود وواحد صغير ذو شعر ذهبي اصفر . بعد ذلك نادت الفتاة هيو الذي كانت بيده الكرة طالبة منه ان يقذفها لها ، فضحك الصبي وقذفها لها كما ارادت ، ولكنها لم تلقفها واجتازتها الكرة ودخلت في البيت .

وطلب هيو من الفتاة ان تعيد اليه الكرة ، ولكنها لم ترض بل عرضت عليه مقابل ذلك تفاحة جميلة ووعدته بارجاع الكرة اليه ان هو صعد بنفسه ليأخذها . وكان السلم مظلما بعض الشيء ، ولكن هيو اراد استرجاع كرته مهما كان الحال ، اذا لم يكن لديه سواها . وكانت الفتاة اليهودية تبتسم ابتسامة غريبة وهي تعرض عليه التفاحة . ودخل هيو البيت ولم يخرج منه بعد ذلك . اما الاطفال اليهود فقد انتظروا قليلا ولما لم يخرج سئموا من الانتظار وعادوا الى بيوتهم ، اذ كان المساء يقترب والجو ينذر بهبوب عاصفة شديدة .

ولما خيم الظلام ومضى من الليل قسم كبير ولم يبق احد في شوارع مدينة لنكولن ، سقطت كرة صغيرة من تلك النافذة في شارع ستيب هل واخذت تتدحرج الى اسفل الوادي حتى وصلت شارع المضيق Strait ثم عبرت الشارع الرئيسي الى ان وصلت نهر ويتام Witham فسقطت الكرة في مياه النهر الجاري واخذها التيار معه في طريقه الى البحر .

ولما لم يرجع الصبي الى بيته قلق عليه والداه ، وأخذا يفتشان عليه ومعهما الاهل والاقارب والاصدقاء ، فذهبوا الى بيت القسيس وفتشوا كل مكان من الكنيسة الى البيت ولكنهم لم يعثروا للصبي على اثر . لقد اختفى هيو من شوارع لنكولن اختفاء تاما .

وفي الايام التالية جرت حملة واسعة من التحقيق ، ولكن لم يكن احد قد رأى الصبي يوم اختفائه مطلقا ، باستثناء الاطفال اليهود الخمسة الذين كانوا يلعبون معه ، ولكن هؤلاء بطبيعة الحال لم يسألهم احد .

وبعد عشرة ايام عثرت ام الصبي على طفلها . لقد أتت الى بئر قديمة لم يستعملها احد من مدة طويلة . وكان عليها ان تزيل الحجارة التي تغطي مدخل البئر قبل ان تتطاول بعنقها لتنظر في اسفله . ولكنها قبل ان تنظر عرفت ما كان في قعر البئر . وجاء الناس واخرجوا الصبي برفق فقد كان هيو صغير الجسم نحيفا . وظهر على جسمه بوضوح انه قتل قتلة شنيعة نكراء .

وجن جنون المدينة ، واخذ غضب السكان يغلي ، وفجأة التهب الجمر المكبوت عندما تذكر احد الناس انه رأى الطفل يلعب مع اطفال اليهود ، وفي الحال اعتقد الجميع ان اليهود هم المسؤولون عن موت « هيو » فقبض على « كوبن » ولكنه رفض ان يعترف بشيء فهددوه وارهبوه بالعذاب حتى الموت ، عند ذاك وصف لهم كوبن كيف صلب اليهود الطفل هيو هازئين بذلك وساخرين من موت المسيح .. ثم حاولوا دفن الجثة ولكن الارض ــ على حد تعبير كوبن ــ لفظته الى الخارج فوضعوه في هذه البئر القديمة . وكان قد وُعد (كوبن) بان لا يصيبه احد بمكروه اذا اعترف بالحقيقة . ولكن (كوبن) كان يهوديا، ولم يهتم احد بالمحافظة على

الطبعة الثانية من

قصائد من نزار قباني

الديوان الشعري الذي احدث

اكبر ضجة في الموسم الماضي

اطلبه من

(دار الاداب)

ص.ب ٤١٢٣ - بيروت

ذلك الوعد ، فربط من يديه الى ذنب حصان وجر الى هنـاك .

بعد ذلك تحول الناس الي اليهود الباقين فقبض عـلى واحد وتسعين رجلا من كبار اليهود ومنهـم (هارون) وارسلوا الى لندن للمحاكمة ، ولكن الحراس لم يستطيعوا الصبر الى يوم المحاكمة فشنقوا ثمانية عشر منهم وهم في الطريق الى لندن . اما البقية فقد حكمت عليهم بالشنـق جماعة من المحلفين تتشكل من ٢٤ فارسا و ٢٤ تاجرا ، وتدخل (رتشارد) اخو الملك المسمى (ايرل كورنول) فانقذ رجلين من اليهود كانا سيشنقان مع الباقين.

واثناء ذلك اعلنت كنيسة روما انها تعتبر (هيو) الصغير شهيدا من شهداء المسيحية ، وبذلك اصبح الصبي قديسا بنظر الكنيسة وسمى بالقديس هيو ثاني قديس في لنكولن.

واخذت كاتدرائية لنكولن جثة الصبي فعرضتها في صحن الكنيسة حينا من الزمن ليراها المتدينون والفضوليون، ثم دفنتها باجلال وتقدير عظيمين . واخذ الناس من مدن انكلترا يأتون للتبرك من قبر الشهيد الصغير جالبين معـهم الهدايا والذبائح للقديس ولكنيسته .

اما رجال الدين فقد سروا بنتيجة المحاكمة ضد اليهود، وسر الفرسان والتجار واصحاب الحرف لان ديونهم تلاشت في لحظة عين ولن تقض مضاجعهم بعد الان تلك المطالبـة الملحة بالفوائد الباهظة ، ولن يحاولوا محاولاتهم اليائسـة المتكررة لدفع ديونهم المتراكمة ، فاعداؤهم المرابون قد قضى عليهم نهائيا . اما عامة الناس فقد جرموا اليهود بدون اي تحفظ ، وذلك عن بساطة وسذاجة ، فقد كانوا يسيئون الظن باولئك الاغراب الذين لا يعترفون بالمسيح وعندما يمر احدهم بيهودي في الشارع كان يرسم علامة الصليب على صدره ابعادا للشؤم والشر . اما الملك فمن المحتمل انـه كان اعظم الناس سرورا لما حدث ، اذ ان القانون في ذلك الحين كان ينص على ان الملك اذا نفى يهوديا من البلاد صادر ايضا جميع ممتلكاته واملاكه . وكان الملك عند ذاك فـي حاجة ماسة الى المال وها هو المال يمتد اليه ويأتيه بدون مشقة ...

وفي نهاية القرن الثالث عشر لم يعد لوجود اليهـود ضرورة في انكلترا فقد اصبح المسيحيون يقرضون الاموال بفوائد بسيطة ، وعندئذ اصبح الملك في موقف يستطيع فيه ان ينفي اليهود من انكلترا وينال بذلك ايضا تأييـد الكنيسة المطلق .

في عام ١٢٩٠ عندما كان الملك ادوارد الاول على العرش صدر الامر بنفي جميع اليهود من انكلترا وجاء في الامـر ايضا ان اي يهودي يبقى في انكلترا بعد عيد جمـيع القديسين لذلك العام يشنق وتقطع جثته اربع قطع . فغادر انكلترا على اثر ذلك ١٦ الف يهودي وصادر الملك جميع ممتلكاتهم .. وهكذا تم اخذ الثأر لـ (هيو) الصغير وانقضت اربعمائة عام قبل ان وضع اول يهودي رجله على ارض انكلترا مرة ثانية .

وقد يتساءل المرء ماذا جرى لهارون ؟ لا يعرف احد ماذا حدث له بالضبط ، فبعضهم يقول ان اهالي (لنكولن) قد قذفته بالحجارة حتى مات . ويقول اخرون انه مـات ميتة طبيعية قبل نفي اليهود في عام ١٢٩٠ . ومهما كـان مصيره فبيته لا يزال قائما في (لنكولن) تبدو عاليه سيماء الغطرسة والصلف ، يطل على الوادي من تحته حيـث لا يزال الاطفال يلعبون بكراتهم الصغيرة في الشارع المبلط بالحجارة ، ويقذفون كراتهم على حائطه العريض .

جامعة ادنبرة ـ اسكتلندا **فؤاد حـداد**

في السوق

مَوْتى بلا قُبُور

البغى الفاضلة

مسرحيتان

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

في سلسلة : روائـع المسرح العالمي

منشورات دار الاداب

ص.ب. ٤١٢٣